- ٢٣ -
التفسير والتأويل

القرآن الكريم هو مصدر التشريع الأول للأمة المحمدية ، وعلى فقه معناه ومعرفة أسراره والعمل بما فيه تتوقف سعادتها ، ولا يستوى الناس جميعًا فى فهم ألفاظه وعباراته مع وضوح بيانه وتفصيل آياته ، فإن تفاوت الإدراك بينهم أمر لا مراء فيه فالعامى يدرك من المعانى ظاهرها ومن الآيات مجملها ، والذكى المتعلم يستخرج منها المعنى الرائع ، وبين هذا وذاك مراتب فهم شتَّى ، فلا غرو أن يجد القرآن من أبناء أمته اهتمامًا بالغًا فى الدراسة لتفسير غريب ، أو تأويل تركيب .

* * *

معنى التفسير والتأويل

التفسير فى اللُّغة : تفعيل من الفَسر بمعنى الإبانة والكشف وإظهار المعنى المعقول ، وفعله : كضرب ونصر ، يقال : فسر الشىء يفسر بالكسر ويفسره بالضم فسرًا ، وفسره : أبانه ، والتفسير والفسر : الإبانة وكشف المغطى ، وفى لسان العرب : الفسر كشف المغطى ، والتفسير كشف المراد عن اللَّفظ المشكل ، وفى القرآن : ﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (١) أى بيانًا وتفصيلاً والمزيد من الفعلين أكثر فى الاستعمال .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أى تفصيلاً .

وقال بعضهم : هو مقلوب من « سفر » ومعناه أيضاً : الكشف ، يقال : سفرت المرأة سفورًا : إذا ألقت خمارها عن وجهها ، وهى سافرة ، وأسفر الصبح : أضاء ، وإنما بنوه على التفعيل ، لأنه للتكثير ، كقوله تعالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴾ (٣) ، فكأنه يتبع سورة بعد سورة ، وآية بعد أخرى .

---

(١) الفرقان : ٣٣ (٢) البقرة : ٤٩ (٣) يوسف : ٢٣

وقال الراغب : الفسر والسفر يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما ، لكن جُعِلَ الفسر لإظهار المعنى المعقول ، وجُعِلَ السفر لإبراز الأعيان للأبصار ، فقيل : سفرت المرأة عن وجهها ، وأسفر الصبح .

والتفسير فى الاصطلاح : عرَّفه أبو حيان بأنه : « علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ، ومدلولاتها ، وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، ومعانيها التى تُحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك » .

ثم خرَّج التعريف فقال : فقولنا : « علم » ، هو جنس يشمل سائر العلوم ، وقولنا : « يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن » ، هذا هو علم القراءات ، وقولنا : « ومدلولاتها » ، أى مدلولات تلك الألفاظ ، وهذا هو علم اللُّغة الذى يُحتاج إليه فى هذا العلم ، وقولنا : « وأحكامها الإفرادية والتركيبية » هذا يشمل علم التصريف وعلم الإعراب ، وعلم البيان ، وعلم البديع ، وقولنا : « ومعانيها التى تُحمل عليها حالة التركيب » ، يشمل ما دلالته عليه بالحقيقة ، وما دلالته عليه بالمجاز ، فإن التركيب قد يقتضى بظاهرة شيئا ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يعمل على غير الظاهر ، وهو المجاز ، وقولنا : « وتتمات لذلك » ، هو معرفة النسخ وسبب النزول ، وقصة توضيح بعض ما انبهم فى القرآن ونحو ذلك .

وقال الزركشى : التفسير : علم يُفهم به كتاب الله المنزَّل على نبيه محمد ﷺ : وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه وحكمه (1) .

والتأويل فى اللُّغة : مأخوذ من الأول ، وهو الرجوع إلى الأصل ، يقال : آل إليه أولاً ومآلاً : رجع .. ويقال : أوَّل الكلام تأويلاً وتأوَّله : دبره وقدَّره وفسَّره ، وعلى هذا : فتأويل الكلام فى الاصطلاح له معنيان :

١ - **تأويل الكلام** : بمعنى ما أوَّله إليه المتكلم أو ما يؤوَّل إليه الكلام ويرجع ، والكلام إنما يرجع ويعود إلى حقيقته التى هى عين المقصود ، وهو نوعان : إنشاء وإخبار ، ومن الإنشاء : الأمر .

---

(1) « الإتقان » (٢/ ١٧٤) .

فتأويل الأمر : هو الفعل المأمور به ، ومن ذلك ما رُوِىَ عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللَّهُم وبحمدك اللَّهُمَّ اغفر لى ، يتأوَّل القرآن » (١) ، تعنى قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (٢) .

وتأويل الأخبار : هو عين المخبر إذا وقع ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ (٣) فقد أخبر أنه فصَّل الكتاب ، وأنهم لا ينتظرون إلا تأويله ، أَى مجىء ما أخبر القرآن بوقوعه ، من القيامة وأشراطها ، وما فى الآخرة من الصحف والموازين والجنة والنار وغير ذلك ، فحينئذ يقولون : ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ ؟ .

٢ - **تأويل الكلام** : أى تفسيره وبيان معناه ، وهو ما يعنيه ابن جرير الطبرى فى « تفسيره » بقوله : « القول فى تأويل قوله تعالى كذا وكذا » ، وبقوله : « اختلف أهل التأويل فى هذه الآية » فإن مراده التفسير .

ذلك هو معنى التأويل عند السَلَفَ :

والتأويل فى عُرف المتأخرين : هو صرف اللَّفظ عن المعني الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به - وهذا الاصطلاح لا يتفق مع ما يُراد بلفظ التأويل فى القرآن عند السَلَف .

هذا ومن العلماء من يُفَرِّق بين المعنى ، والتفسير ، والتأويل ، للتفاوت بينها لغة وإن كانت متقاربة ، وقد نقل « الزركشى » هذا (٤) .

قال ابن فارس : معانى العبارات التى يُعَبَّر بها عن الأشياء ترجع إلى ثلاثة : المعنى ، والتفسير ، والتأويل ، وهى وإن اختلفت فالمقاصد بها متقاربة :

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) النصر : ٣

(٣) الأعراف : ٥٢ - ٥٣

(٤) انظر : « البرهان » (٢/١٤٦ - بتصرف) .

فأما المعنى : فهو القصد والمراد ، يقال : عنيتُ بهذا الكلام كذا ، أى قصدتُ وعمدتُ ، وهو مشتق من الإظهار ، يقال : عنت القِربة ، إذا لم تحفظ الماء بل أظهرته ، ومن هذا : عنوان الكتاب .

وأما التفسير فى اللُّغة : فهو راجع إلى معنى الإظهار والكشف ، وقال ابن الأنبارى : قول العرب : فسرت الدابة وفسرتها ، إذا ركضتها محصورة لينطلق حصرها ، وهو يؤول إلى الكشف أيضاً ، فالتفسير كشف المغلق من المراد بلفظه ، وإطلاق للمحتبس عن الفهم به .

وأما التأويل : فأصله فى اللُّغة من الأول ، ومعنى قولهم : ما تأويل هذا الكلام ؟ أى إلام تؤولِ العاقبة فى المراد به ؟ كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يأْتِى تَأْوِيلُهُ ﴾ (٢) أى تُكشف عاقبته ، ويقال : آل الأمر إلى كذا ، أى صار إليه ، وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْه صَبْرًا ﴾ (٣) وأصله من المآل ، وهو العاقبة والمصير ، وقد أولته فآل - أى صرفته فانصرف فكأن التأويل صرف الآية إلى ما تحتمله من المعانى ، وإنما بنوه على التفعيل للتكثير .

* * *

الفرق بين التفسير والتأويل

اختلف العلماء فى الفرق بين التفسير والتأويل - وعلى ضوء ما سبق فى معنى التفسير والتأويل نستطيع أن تستخلص أهم الآراء فيما يأتى :

١ - إذا قلنا : إن التأويل هو تفسير الكلام وبيان معناه ، فالتأويل والتفسير على هذا متقاربان أو مترادفان ، ومنه دعوة رسول الله ﷺ لابن عباس : « اللَّهُمَّ فقهه فى الدين وعلمه التأويل » .

٢ - وإذا قلنا إن التأويل هو نفس المراد بالكلام ، فتأويل الطلب نفس الفعل المطلوب ، وتأويل الخبر نفس الشىء المُخْبَر به ، فعلى هذا يكون الفرق كبيرًا بين

---

(١) انظر : « البرهان » (٢/ ١٤٦) بتصرف .

(٢) الأعراف : ٥٣ (٣) الكهف : ٨٢

التفسير والتأويل ، لأن التفسير شرح وإيضاح للكلام ، ويكون وجوده فى الذهن بتعقله ، وفى اللّسان بالعبارة الدالة عليه ، أما التأويل فهو نفس الأمور الموجودة فى الخارج ، فإذا قيل : طلعت الشمس ، فتأويل هذا هو نفس طلوعها ، وهذا هو الغالب فى لغة القرآن كما تقدم ، قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [١] .. فالمراد بالتأويل وقوع المُخْبَر به .

٣- وقيل : التفسير : ماوقع مبيّنًا فى كتاب الله أو مُعيّنًا فى صحيح السُّنَّة ، لأن معناه قد ظهر ووضح ، والتأويل ما استنبطه العلماء ، ولذا قال بعضهم : « التفسير ما يتعلق بالرواية ، والتأويل ما يتعلق بالدراية » [٢] .

٤ - وقيل : التفسير : أكثر ما يُستعمل فى الألفاظ ومفرداتها ، والتأويل : أكثر ما يُستعمل فى المعانى والجُمل - وقيل غير ذلك .

* * *

شرف التفسير

والتفسير مِن أَجَلّ علوم الشريعة وأرفعها قدرًا ، وهو أشرف العلوم موضوعًا وغرضًا وحاجةً إليه - لأن موضوعه كلام الله تعالى الذى هو ينبوع كل حكمة ، ومعدن كل فضيلة - ولأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية - وإنما اشتدت الحاجة إليه لأن كل كمال دينى أو دنيوى لا بد وأن يكون موافقًا للشرع ، وموافقته تتوقف على العلم بكتاب الله [٣] .

* * *

(١) يونس : ٣٨ - ٣٩

(٢) انظر : « الإتقان » (٢/ ١٧٣) .

(٣) انظر : « الإتقان » (٢/ ١٧٥) .